اخناتــون وبــلاد الشــــام
الســلطة والمعارضــة

محمود عبد الحميد أحمد

يعد أخناتون شخصية فريدة في تاريخ البشرية . فانـك ما أن تسـمع اسـم أخناتون الا ويتبادر الى ذهنك ذكرى فيلسوف عظيم كـان له السبق بالدعوة الـى الوحدانية في عصور موغلة في القدم . وأنك لتعجب حقا لهذه الدعوة المبكرة ، وتكون بين مصدق ومعـجب بهذهالشخصية الفـذة . ولم يقف أخناتون عنـد الدعوة الى وحدانية ربه ، بل أسبغ عليه من الصفات ما يجعلنا ندهش لهـذا الابداع في صفات الــه كلها رحمة ومحبة وخير للبشر عامة ، في وقت كانت رحمة الــه قوم أو منطقــة لا تتنزل الا عليهم ، وكان أي اله يسوق الاخرين أسرى ويقتلهم وينكل بهم أمام مـن يعبدونــه .

ان شخصية أخناتون ــ كما سنرى ــ متعددة الجوانب ، فهو أول من حاول أن يجدد في عالم الدين والفكر والفن والعلاقات بين الشعوب . وقد كان اخناتون مخلصا لمبادئه ، صادقا في كل ما دعى اليه، على الرغم من قوة التقاليد وجبروتها، واستخدامها من قبل أعدائه (كهنة أمون) سلاحا ضده . وهكذا فاني أستطيع القول بناء على كل ما جاء به اخناتون ، ان هذا المفكر العبقري أول ثائر عالمي . لم ترهبــه قوة الكهنــة الاقتصادية ، ولا تغلغل نفوذهم الديني والثقافي في نفوس المصريين . ولا قوة التقاليد التي كانت راسخة رسوخ الجبال في أذهان المصريين القدماء . بل مضى في طريق دعوته غير هياب ، وسان حاله يقول : لن أترك هذا الدين . وفي السطور التالية سوف أحاول كتابة قصة أخناتون من أولها الى آخرها .

مصر قبل اخناتــون :

نتج عن تحرر مصر من حكم الهكسوس في مطلع القرن السادس عشر قبل الميلاد (١٥٧٥ ق.م) نتائج عظيمة . من أهم هذه النتائج ، تحقيق الوحدة المصرية للمــرة الثالثة . بعد أن كان حكام الاقاليــم يحكمون أقاليمهم شـبه مستقلين عن سـلطة

الهكسوس ، حيث قبل الهكسوس بهذا الوضع ، طالما كان حاكم الاقليم يعترف بسيادتهم ويدفع لهم الجزية . وعلي أن أشير هنا الى قانون عام في تاريخ الشعوب ، يتلخص في أنه ما من شعب حقق وحدته الا وامتلك قوة كبيرة ـ بالقياس لماضيه القريب ـ تجعله يبحث عن مكان له تحت الشمس ، وهذا ما حصل للشعب المصري بعد تخلصه من حكم الهكسوس كما سنرى . والنتيجة الثانية هي تكوين الجيش المصري فقد كان الجيش المصري قبل الان يجمع من الاقاليم ؛ حين تقتضي الاحوال ، كما فعل الملك بيبي الاول في الدولة القديمة . ولكننا الان ، نرى الوضع قد تغير كثيرا بعد حرب الهكسوس . فالاسطول الحربي المصري أصبح مؤسسة قائمة بذاتها ، يأتمر أفراده بأمر الفرعون . وقد بدأ هذا واضحا خلال حرب الهكسوس(١) . وأصبح الجيش البري تحت امرة الفرعون والضباط . والمرء يلمس هذا واضحا كل الوضوح في حروب ملوك الاسرة الثامنة عشر(٧). أما النتيجة الثالثة ، فهي وجود ادارة مركزية منظمة ، ذات خبرة عظيمة ، استطاعت هذه الادارة ، أن ترسل الجيوش المصرية الى الفرات في أقصى الشمال ، والى قلب افريقية . كما استطاعت هذه الادارة ، أن تشرف على شؤون البلاد الدينية والادارية والاقتصادية والاجتماعية . فأرسلت البعثات التعدينية والتجارية الى بلاد البونت والى سيناء ، والى بلاد الشام . كما نظمت الزراعة وأشرفت عليها .

سعت الامة المصرية وقد تحررت من الهكسوس ، ورتبت البيت المصري من الداخل الى ايجاد استراتيجية تستطيع من خلالها التعامل مع شعوب المنطقة في مستقبل الايام . وبرز هنا رأيان ، وكل من الرأيين يرى أن على مصر أن تغير من استراتيجيتها السابقة تجاه الشعوب المحيطة بها . فالمناعة الالهية الطبيعية ، حيث لا تسبغ الالهة حمايتها الا على مصر ، قد فشلت بعد غزو الهكسوس . وقال أصحاب الرأي الاول والاقدم ـ الملكة حتشبوت وانصارها ـ ان عزة مصر وتفوقها لا يتحققان الا من خلال التفوق الثقافي والاقتصادي على شعوب المنطقة . وقال أصحاب الرأي الثاني ـ الملك تحوتمس الثالث وانصاره ـ ان عزة مصر وتفوقها لا يتحققان الا من خلال قيادة الجيوش العظيمة المدربة ، والانتصار في المعارك الحربية . وبعد صراع قصير بين المبدأين ، نجح أصحاب الرأي الثاني ، واستطاع تحوتمس وأنصاره تكوين امبراطورية تمتد من الفرات وجبال طوروس في سورية الى حدود السودان . وحمل الفراعنة الى مصر الكثير من الاسلاب والغنائم خلال حروبهم في بلاد الشام أو النوبة . كما حملت الشعوب التي أصبحت تحت السيطرة المصرية جزاها السنوية الى قصر الفرعون . ومن المؤكد أن عظمة مصر في هذا المجال وصلت الذروة في عهد الملك امنحوتب الثالث حوالي ١٤٠٥ ق.م. فالامبراطوريات الكبيرة في منطقة الشرق القديم من حثية ومتيانية وكاشية وآشورية ، آمنت بأن مصر قوة كبيرة لا يمكن قهرها ، تمتلك جيشا عظيما ،

وتسيطر على بلاد الشام التي تعد من أعظم المناطق ، بسبب مرور الطرق التجارية العالمية خلالها عصرئذ . ولذلك سعت اليها تحمل الهدايا لتكسب صداقتها . وهنا التفت امنحوتب الثالث الى متع الدنيا ، من شراب ، وبناء ، وصيد ، ونساء . وقد نتج عن وجود ملك غير محارب على رأس السلطة المصرية ، غير هياب بأحوال امبراطوريته ، ان تحركت الاطماع للقضاء على الامبراطورية المصرية في بلاد الشام . وكان من أشد الممالك عداوة لمصر ، مملكة خيتا في آسيا الصغرى ، حيث صارت تغير على الامارات السورية الواحدة تلو الاخرى وتنال منها ، والمملكة العمورية التي قامت في وسط سورية بزعامة عبدي عشرتا وابنه عزيرو ،وأخذت تتوسع على حساب الممالك السورية الموالية لمصر ، الى أن وصلت الساحل السوري على البحر الابيض المتوسط . وقد كتب أمراء الامارات السورية الموالية لمصر الى الفرعون أمنحوتب (٣) أمثال جبيل ، وقطنا وغيرهما عن الغارات التي قام بها الحثيون ، وعن توسع المملكة العمورية الحليف غير المعلن مع خيتا . ولكن امنحوتب الثالث لم يقم بأي عمل حاسم ، يضع النقاط على الحروف(٤) .

توفي امنحوتب الثالث حوالي ١٣٦٧ ق.م ، وخلف ابنه امنحوتب الرابع على عرش المملكة المصرية القديمة . وفي هذا الوقت، كان وجود الامبراطورية في بلاد الشام، يتعرض لرياح حثية قوية،تريد أن تجتثه من جذوره وكانت احوال مصر وامبراطوريتها في بلاد الشام ، تتطلب قائدا محاربا مثل تحوتمس الثالث(٥) . ولكن الواقع جاء مخالفا تماما . فالحاكم الجديد فيلسوف ، خيالي ، حالم ، لم يعط جل اهتمامه لمجد مصر في بلاد الشام والشرق القديم . بل نراه يولي اهتمامه فكرا خلاقا، لا عهد لمصر والشرق القديم بـه .

استمر أمنحوتب الرابع خلال الاربع سنوات الاولى من حكمه في تقديس كل الالهة المصرية ، وتقديم العبادات والقرابين لها . ولم يلحظ الباحثون أي تغير في أمور الدين بخاصة . ولكن يبدو أن النار كانت تحت الرماد ـ كما سيتبين لنا فيما بعد ـ اذ أن صراعا مستترا كان يدور بين فراعنة مصر وكهنة الاله أمون ـ أكبر آلهة مصر وقتئذ ـ منذ عهد جده الفرعون تحوتمس الرابع (جد امنحوتب الرابع) ، وكان محور هذا الصراع السلطة في مصر القديمة . وقد تفجر هذا الصراع في السنة الرابعة من حكم امنحوتب الرابع . ويستطيع الباحث أن يتلمس مظاهره الدينية ، والادارية ، والاقتصادية ، والفكرية بشكل واضح وجلي(٦) .

المظاهــر الدينيــة :

قام أمنحوتب الرابع بعدة اجراءات دينية ، الهدف الاســاسي منها القضاء على ديانة أمون ونفوذ كهنة أمون . وفيما يلي يعرض الباحث لهذه الاجراءات :

أولا ــ تغيير اسمه : غير امنحوتب اسمه الذي يعني أمون راض أو أمون فيسلام الى أخناتون بمعنى المفيد لآتون ــ اسم الهه الجديد ــ أو « آتون راض »(٧) ولهــذا التغيير أهمية كبيرة ، تكمن هذه الاهمية في أن الملك تخلى عن ارتباط اسمه باسم الاله المبجل في كل مصر القديمة ، والذي ساعد الفراعنة على بناء الامبراطورية المصرية في الشام والنوبة . بل وأكثر من ذلك ، فقد كانت ديانة أمون هي الديانة الرسمية للدولة في عصر الاسرة الثامنة عشرة ،لان اسم هذا الإله ارتبط بأسماء معظم ملوك هذه الاسرة، ولانه كان اله طيبة العاصمة الامبراطورية . وهكذا فان التخلي عن اسم أمون ، يعني التخلي عن عبادة هذا الاله ، وعن معابده ، وطقوسه ، وكهنوته ، وامتيازاته . وبالمقابل فان ارتباط اسم الفرعون باسم اله جديد ، يعني الاعلان عن دين الفرعون الرسمي . ويعني الاعلان عن الاله الرسمي للدولة ويعني أن الطقوس سوف توجه اليه وان المعابد سوف تقام له .

ثانيا : شنّ اخناتون حملة شعواء على اسم أمون . فأمر ان يمحى هذا الاســم أينما وجد ، فمحاه من اسمه ، ومحاه من اسم أبيه أمنحوتب الثالث . كما محاه من كل آثار الامبراطورية التي وجــدت في طيبة . ومن المؤكد ان اخناتون بمحوه هذا ، أراد ان يمحو ديانة أمون من الوجود ومن اذهان الشعب المصري . فمحو الاسم في مفهوم الشرق القديم بشكل عام،يعني حرمان صاحبه من السعادة والخلود ، ويعني القضاء على قوته وتأثيره(٨) .

ثالثا : أمر اخناتون ألا يشار الى الالهة بصيغة الجمع ، فكانت تمحى الكلمــة التي تشير الى الالهة بهذه الصيغة .

رابعا : اتخذ الملك اخناتون لنفسه لقب الكاهــن الاعظم لاتــون ، حيــث سمى نفسه « الناظر الاعظم » M 33 WT . والناظر الاعظم هو لقب الكاهن الاعظم في مذهب هيلوبولس (عين شمس) الشمس . ويعني الكاهن العظيم الذي يراقبالاجرام السماوية ، لتقام الطقوس طبقا لحركاتها .

خامسا : لقد بلغ اخناتون ذروة الاجراءات الدينية عندما نادى بعبادة اله واحد، هو الاله آتون . وقد وصفته نصوص العمارنة ، بأنه « الاله الاوحد ، الذي لا مثيــل

لـــه »(٩) . وهو مصدر الحياة في هذا الوجود سواء للانسان أم للحيوان والنبات ، فأشعته التي رسمت على شكل أيدي منبعثة من قرص الشمس ، هي التي تمنـــح الحياة والخير والبركة للوجود ، حيث نرى هذه الاشعة في بعض الرسوم وهي تقـــدم علامـــة الحياة عنخ fcnh (٨٠) .

كان آتون قرص الشمس المستدير ، وهو اله قديم معروف لدى المصريين منذ أيام الدولة المصرية القديمة ، حيث ورد اسمه في نصوص الاهرام . كما عثر بالقرب من تمثال « ابو الهول» بالجيزة على لوحة من عهد الملك تحوتمس الرابع (جد أخناتون)، مرسوم عليها قرص الشمس ، وهو يعطي الحياة . كما أصبح عليه الامر في أيـــام اخناتون(١١) .

المظاهر الاداريـــة :

كانت طائفة الكهنة في مصر القديمة تتمتع بميزات ادارية خاصة ، جعلت منهـــا طبقة في المجتمع لا تدانيها طبقة . من هذه الميزات ، الثقافة العالية ، اذ كانت مهنة الكتابة سائدة بينهم ، ويكفي ان نتذكر أن خطا رئيسا في الكتابة المصرية سمي باسمهم « الخط الهيراطيقي ـــ الخط الكهنوتي » ، لندرك كم كان حظهم من الكتابة بخاصة ومن الثقافة بعامة عظيما . وتمتعت طبقة الكهنة بميزة التنظيم ، حيث كانت للكهنة مراتب أعلاها الكاهن الاكبر في معبد الالـــه الذي يعبده(١٢) . وكذلك تمتعت طبقـــة الكهنة بميزة الادارة ، وقد اكتسب الكهنة خبرتهم الادارية من واقعهم ، حيث امتلك المعبد آلاف العبيـــد وقطعان الماشية ، والحقول ، والذهب وغـــير ذلك . ولا بد أن مصروفات عديدة ، كانت تلقى على عاتق المعبد. ولهذا برع الكهنة في حساب الصادر والوارد، والحفظ(١٣). وعندما قام اخناتون بالدعوة الى عبادة الالة أتن، تبعه دون شك بعض رجال البلاط . وبعض عامة الناس . أما كهنة أمون ، فقد أخذوا يحقدون عـــلى أخناتون ودينه . ويخلقون المصاعب لادارته . بسبب الاذى الـــذي أصاب مصالحهم . فكان على الملك والحالة هذه ، ان يحدث تغييرا في ادارة الدولة . فأبعد عـــن الادارة انصار كهنة الاله أمون ، وجعل بطانته من الذين نصروه وأيدوه وامنوا بدينه الجديد. ولا يشك أي باحث ان هذا الامر قد أربك الادارة المصرية الاخناتوتية ، التي اصبحت تديرها فئة من الناس حديثة العهد بفن الحكم والاضطـــلاع بالمسؤوليـــات واتخاذ القرارات ، وقد عمق هذا الاجراء الملكي الهوة بين السلطة التي رأسها اخناتون . وبين المعارضة التي كان على رأسها كهنة أمون .

نقل العاصمـة :

ومن الاجراءات الادارية التي قام بها اخناتـون للحد من سلطة الكهنة ، نقـل العاصمة من طيبة الى موقع العمارنة الحالي ، في مصر الوسطى بالقرب من اسـيوط الحالية ، وقد اطلق على عاصمته الجديدة « آخت أتن » ، أي أفق اتن . وذلـك ليصرف أنظار المصريين عن أمون وكهنته ، وليوجههـا الى الهـه أتون والى فكـره وعاصمته(١٤) .

المظاهر الاقتصاديـة :

يستطيع الباحث من خلال دراسة المصالح الاقتصادية لطرفي الصـراع (الملك اخناتون ــ السلطة وكهنة امون ــ المعارضة ــ) ، تلمس أهم أسباب الصراع الـذي ساد كل عهد اخناتون (١٣٦٧ ــ ١٣٤٧ ق.م) .

منذ مطلع القرن السادس عشر فبل الميلاد خاضت مصر حروبا عديدة في الداخل والخارج . ففي الداخل حارب المصريون الهكسوس . وغنموا منهم الكثير (١٥) . وفي خارج مصر ، قام ملوك مصر من بداية حكم الاسرة الثامنـة عشرة ــ أي بعـد طـرد الهكسوس ــ بالحرب في بلاد الشام والنوبة . ومن خلال الآثار والنصوص المصريـة نستنتج ، أن المصريين انتصروا في كل حروبهم ، وحصلوا على مكاسب مادية كبيرة ، حيث الغنائم والاسلاب وجزى الشعوب التي حملتها (وهي صاغرة) الى مصر ، نذكر من هذه الحروب على سبيل المثال ، حروب احمـس الاول (١٥٧٥ ــ ١٥٢٥ ق.م) مؤسس الاسرة الثامنة عشرة في فلسطين ، وحروب تحوتمس الاول (١٥٢٨ ــ ١٥١٠ ق.م) في سورية ، حيث وصل الى نهر الفرات (١٦) ، أما تحوتمس الثالث (١٤٦٨ــ ١٤٤٧ ق.م) فقدقضى عمره يحارب في بلاد الشام ، اذ شن سبع عشرة حملة عسكرية عليها ، وبذلك استطاع ان يكون امبراطورية تمتد من الفرات الى حدود السودان . كما حارب في بلاد الشام كل مـن امنحوتب الثاني بن تحوتمس الثالث ، وتحوتمس الرابع بن امنحوتب الثاني (١٧) .

نتج عن حروب المصريين الآنفة الذكر ثلاث نتائج هامة :

أولا : ارتفاع شأن الاله أمون : ارتفع شأن الاله أمون عند المصريين كثيرا ،وذلك لانه كان اله العاصمة التي انطلقت منها الجيوش المصريـة ، وحققـت الانتصارات العظيمة ، ليس بسبب قوتها ، وحسن تنظيمها ، وتدريبها ، وامتلاكها لافضل أسلحة العصر ، بل لان أمون ــ حسب العقيدة المصرية الدينية ــ أراد ذلك .

ثانيا غنى كهنة معبد الاله أمون :

كان على الملك المصري ـ وقد نصره الاله امون حسب العقيدة المصرية القديمةـ أن يقابل احسان الاله باحسان ، وذلك بأن يخصص جزءا من الغنائم والاسلاب والجزى وأرباح الحملات التجارية والتعدينية الى معبد الاله أمون ، يضاف الى هذا الانعامات الملكية والنذور وتقدمات عباد أمون. ولذلك أصبح كهنة أمون من أغنى الاغنياء في مصر .

ثالثا تدخل الكهنة في شؤون الدولة السياسية :

غني عن القول ان القوة الاقتصادية والسياسية عنصران متلازمان في حياة البشر لا يفترق الواحد منهما عن الاخر ، بل يلازمه ويحميه ، وعندما يسقط احد العنصرين، يتبعه الاخر حتما . وينطبق هذا القول على وضع كهنة أمون (المعارضة) والملك اخناتون (السلطة) . فقد أراد كهنة امون ، وقد امتلكوا المقدرة الاقتصادية ، ان يحموا مصالحهم الاقتصادية هذه عن طريق الهيمنة السياسية . ومن المؤكد ان طائفة الكهنة حاولت التدخل في الشؤون السياسية منذ ايام الملك تحوتمس الرابع (جد اخناتون) ، ولذلك لاحظ الباحثون اتجاه هذا الملك نحو تقوية العبادة الشمسية العريقة في مصر ، والتي كان مركزها في مدينة « ايون » أو « أون » (هليو بولس) في شمال القاهرة الحالية ، وكذلك فعل ابنه الملك امنحوتب الثالث(١٨) .

لقد قامت حرب اقتصادية حقيقية بين الملك والمعارضة ، وقد استخدم الطرفان أشد اسلحتهما مضاءً . لاضعاف الخصم اقتصاديا ، ثم القضاء عليه . فقد أدرك اخناتون ان قوة الكهنة الحقيقية نابعة من قوتهم الاقتصادية . وان النجاح في الحرب يعني امتلاك الاقتصاد الاقوى بالدرجة الاولى . ولذلك حاول منذ بداية هذهالحرب، أن يحطمهم اقتصاديا ، ويقضي على الاسباب التي جعلت منهم قوة اقتصادية . وفيما يلي يلقي الباحث الاضواء على تلك المعارك الاقتصادية :

أولا : أمر اخناتون بعبادة اله واحد هو الاله آتن ، وحرّم عبادة الاله أمون ، ومحى اسمه أينما وجد ، ولو كان في اسم أبيه . فقد جاء في النشيد لأتن ما يلي :

ما اكثر تعدد أعمالك

انها على الناس خافية

يا أيها الاله الأحد

الذي لا يوجد بجانبه إله آخر

لقد خلقت الارض حسب رغبتك

وحينما كنت وحيدا (لا شيء غيرك):

خلقت الناس وجميع الماشية والغزلان(١٩) .

كما قام اخناتون بمصادرة أملاك معبد أمون ، وأمر باغلاق هذا المعبد . وغني عن القول ، ان أخناتون بعمله هذا ، قد أضعف الكهنة اقتصاديا ، حيث منع عنهم الموارد من النذور ، والقرابين ، وغلال الحقول، و والماشية ومنتجاتها ، والعبيد ، والذهب . . . .الخ(٢٠) .

ثانيا نقل العاصمة : كانت طيبة عاصمة مصر الامبراطورية منذ أيام الدولة الوسطى (٢٠٥٠ ق.م) . وقد بلغت هذه العاصمة الذروة أيام ملوك الاسرة الثامنة عشرة ، حيث كانت تقصدها الشعوب حاملة الجزية الى الفرعون ، وحيث استقطبت التجارة العالمية عصرئذ . وبسبب هذا الازدهار السياسي والاقتصادي ، علا شأن الهها أمون . لانه الاله الذي نصر الفرعون ، وهيأ الاسباب لنجاح الحملات التجارية والتعدينية . ومن أجل أن يبتعد أخناتون عن كهنة أمون ومكائدهم ، وليضع الههم في الظل ، نقل العاصمة الى موقع العمارنة في مصر الوسطى . وقد اطلق على عاصمته الجديدة اسم « أخت أتن » أي أفق أتن . وقد يظن البعض ان نقل العاصمة اجراء ادراي فحسب ،ولكنني استطيع القول ، ان العاصمة كان حربا اقتصادية قام بها اخناتون لاضعاف كهنة امون (المعارضة) اقتصاديا ، والقضاء عليهم . ونتساءل كيف ..؟

كان المصري القديم يعتقد ، ان الاله هو الذي ينصر الفرعون ، وان النصر لا يتحقق الا لان الاله راض عن الفرعون ، ولأنه منحه القوة ، وحقق له النصر على الاعداء . ولذلك على الفرعون الذي يعترف بفضل الاله، ان يقابل الاحسان بالاحسان، وذلك بأن يخصص جزءا من الغنائم والاسلاب لمعبده . وجزء من أرباح الحملات التجارية والحملات التعدينية(٢١) .

غني عن القول أن علينا أن نولي اهتمامنا في دراستنا هذه الى أمون وكهنته ، وتأثير نقل العاصمة الاقتصادي ، لقد بلغت مكانة أمون الذروة ، عندما استطاع ملوك الاسرة الثامنة عشرة وعلى رأسهم تحوتمس الثالث، تكوين امبراطورية تمتد من الفرات الى حدود السودان ، ولذلك قصد ممثلو شعوب هذه الامبراطورية العاصمة طيبة ،

وهم يحملون جزاهم السنوية من ذهب ، وفضة ، وعبيد ، وتحف ، لتقديمها للفرعون. كما كانت وفود الدول الصديقة تقصد العاصمة المصرية تحمل الهدايا للفرعون ، عربون مودة وصداقة . وكانت نشوة التدين والاعتزاز ، ومحبة الاله الذي نصر الفرعون ، وجعل هذه الشعوب تأتي طائعة صاغرة الى مصر ، تجعل الفرعون يهب جزءا من هذه الجزى الى معبد كهنة الاله أمون في العاصمة طيبة . وكذلك يفعل الفرعون عندما يوفق في حملاته التعدينية أو التجارية(٢٢) .

اما الان وقد نقل أخناتون العاصمة الى « آخت أتن » ، فقد صارت وفود الشعوب الخاضعة لمصر ، تذهب الى العاصمة الجديدة . وبذلك أصبحت التبرعات الملكية من الجزى ، والغنائم، والارباح التجارية والتعدينية تجد طريقها الى معبد إله أخناتون (الاله أتن) . ومما زاد في خسارة كهنة أمون الاقتصادية ، أن قادة الجيش ، وكبار الضباط ، وكبار الموظفين ، والتجار قد التحقوا بالعاصمة الجديدة الى جانب الفرعون ، وهكذا فان نذورهم ، وتبرعاتهم نتيجة لنجاح يصيبونه ، أصبحت تذهب الى معبد أتن . يضاف الى ما سبق الانعامات الملكية سواء من الملك أم من افراد اسرته . وهكذا استطاع اخناتون بهذا العمل البارع (تغيير العاصمة)، ان يحرم المعارضة من اكبر مورد اقتصادي ، تسبب أصلا في نشوء قوتهم .

المظهر الاجتماعي :

لا شك في أن اخناتون كان جبارا ، حين وقف بوجه طائفة الكهنة المنظمة القوية الغنية ، لتكون له الكلمة الاولى في سياسة الدولة الداخلية والخارجية . ومن أجل تحقيق هذا الهدف قام إخناتون بحربه الدينية والادارية والاقتصادية ضد الكهنة. ولكن لئن حملت خطواته تلك اسباب النجاح ، لكنها حملت في ثناياها أسباب الفشل. وفيما يلي يقدم الباحث دراسة عن انعكاس خطوات اخناتون الجريئة على فئات الشعب المصري من كهنة وعمال وجنود وصناع ومفكرين وغيرهم . والتي كانت سلبية في نتائجها . وقد استغلت المعارضة هذه السلبيات بشكل جيد ، واستخدمتها سلاحا بيدها ، أدى الى سقوط اخناتون .

١ ـ الوحدانية واغلاق المعابد والبطالة : دعا اخناتون الى عبادة اله واحد (الاله أتن) ، ولذلك أمر باغلاق معابد الاله أمون ـ العدو الرئيسي ـ ومعابد الالهة الاخرى وكان على رأسهم الاله أوزير(٢٣) . وقد أشار الى هذا الاجراء خليفته الملك « توت عنخ أمون » حيث جاء في نصوصه : « وأغلقت معابد الالهة من الفنتين ـ عند الشلال الاول ـ الى مستنقعات الدلتا »(٢٤) وقد نتج عن هذا تسريح الكهنة والموظفين

وكثير من العمال والفنانين الذين كانوا في ادارة وخدمة المعابد ، وبذلك أصبحوا جزءا اساسيا في حزب المعارضة ، خلقواالكثير من المشـاكل للسلطة التي يمثلها الملك اخناتون(٢٥) .

٢ ـ **استراتيجية اخناتون السلمية :** حارب الجنود المصريون منذ مطلع القرن السادس عشر قبل الميلاد في مصر حيث طردوا الهكسوس ، وفي فلسطين وسورية وبلاد النوبة ، وقد حققوا نجاحا عظيما في حروبهم هذه ، اذ أصبحت مصر تسيطر على امبراطورية تمتد من الفرات شمالا الى حدود السودان جنوبا . وقد أفاد الجند من هذه الحروب . حيث الاسلاب والغنائم ، وهبات القادة والملوك تقديرا لشجاعتهم ، أي أن الحرب كانت تعود عليهم بالفوائد المادية والمعنوية ، وكل تغيير يطرأ على استراتيجية مصر القائمة على التفوق العسكري على شعوب المنطقة ، سوف يغضب الجند ويضر بمصالحهم . وقد حدث هذا التغيير فعلا في عهد الملك اخناتون ، الذي أخذ بسياسة مبنية على التسامح والسلام مع شعوب الامبراطورية المصرية(٢٦) وقد نتج عن سياسة اخناتون هذه نيتجتان رئيستان ، الاولى سخط الجنود المصريين الذين أضيروا بسبب انتهاج اخناتون للسياسة السلمية ، حيث حرموا من ترقيات الملوك والقادة لهم ، كما حرموا من مورد رزق كبير ، بالاضافة انهم حرموا أيضا من تحقيق أمجاد شخصية ، نتيجة لبطولاتهم في ساح المعارك . والنتيجة الثانية ،ضياع الامبراطورية ، اذا كانت المملكة الحثية في آسيا الصغرى ، تتطلع دوما بجشع كبير الى احتلال بلاد الشام ، للسيطرة على أهم الطرق التجارية العالمية(٢٧) . ولم يحل دون تحقيق هدفها إلاّ المملكة الحورية ـ الميتانية التي كانت تقوم في الجزيرةالسورية الحالية ، وتتخذ من واششوكاني (تل الفخيرية بالقرب من رأس العين الحالية) عاصمة لها ، وتهيمن على شمال سورية حتى المتوسط(٢٨) . وأضيف الى المملكة الحورية ـ الميتانية الامبراطورية المصرية في بلاد الشام . ولكن باعتلاء اخناتون عرش مصر وقيامه باصلاحه الديني وما نجم عنه من نتائج ذكرناها آنفا ، حانت الفرص لشوبيلوليوما(٢٩) كي يحقق حلم الحثيين . فبدأ بالمملكة الحورية الميتانية حليفة مصر من أيام الملك تحوتمس الرابع ، حيث شن عليها هجوما كبيرا أيام الملك امنحوتب الثالث ، لكنه لم يفلح في هذا الهجوم الذي شنه من جهة الغرب حيث الدفاعات العظيمة لمملكة ميتاني وقد استفاد الملكالحثي من هجومه الاول ، فشن هجومه الثاني في عهد الملك اخناتون ـ من جهة الشرق ، ونجح في هزيمة الميتانيين ، وقضى على دولتهم ، هذه الدولة التي كانت تجبره دوماً على البقاء خلف جبال طوروس(٣٠) .ولم يقف شوبيلوليوما عند هذا الحد ، بل قام بالغارة على الممالك السورية الحليفة لمصر . وكتبت هذه الممالك الى اخناتون تصف له شراسة الغارات الحثية ، وتطلب المساعدة والنصرة . لكن ما من مجيب . واستمر الحثيون لذلك في توسعهم ، لدرجة ان

النصوص الحثية، تدعي ان نفوذ الحثيين امتد الى جبال لبنان(٣١). ولم تكن الدولة الحثية الطامعة الوحيدة بالامبراطورية المصرية في بلاد الشام . بل وجدت مملكة أخرى في وسط سورية ، هذه المملكة هي المملكة العمورية بزعامة عبدي عشرتا وابنه عزيرو . وبسبب ظروف مصر الداخلية ، استطاعت هذه المملكة ان تسيطر على وسط سورية وتمد نفوذها الى الساحل السوري ، حيث سيطرت على منطقة تمتد من سميرا جنوب طرطوس (ميناء تحوتمس الثالث المفضل) الى مدينة جبيل ، التي كان ملكها رب عدي مخلصا لمصر حتى الموت(٣٢) . وكتب رب عدي وحكام الممالك السورية التي تضررت من الاحتلال العموري الى اخناتون ، حيث أرسلوا عشرات الرسائل يستنصرونه ، ولكن اخناتون لامرٍ ما لم يجبهم الى مطالبهم(٣٣) .

وهكذا نستنتج من دراستنا السابقة ، ان الملك اخناتون اهمل ادارة الامبراطورية المصرية في آسيا ، وانه لم يستخدم الجيش في الحفاظ على هذه الامبراطورية ، على الرغم من استغاثات الحكام السوريين ، مما جعل الجيش ينحاز الى صف المعارضة ، فقائده حورم حب (قائد الجيش في عهد اخناتون) ، كان من أشد المتحمسين للقضاء على ثورة العمارنة وما خلفته من اثار ، بعد وفاة اخناتون .

تعاليم الاتونية وأثرها على الصناع والكتاب والفنانين :

أصاب الكساد كثيرا من المهن التي كانت مرتبطة بديانة أمون بخاصة والديانات المصرية بعامة ، وذلك بسبب تعارض التعاليم الاتونية مع غيرها من الديانات المصرية القديمة ، وفيما يلي يعرض الباحث لاهم المهن والطقوس المصرية التي ابطلت وأصاب أصحابها العوز ، وبذلك ازداد عدد المعارضين لديانة اخناتون :

١ ـ النذور : كانت الطقوس الدينية المصريه تقضي وضع نذور من فطائر خاصة خلال أيام الاعياد ، لكن هذه النذور توقفت بحلول ديانة أتون . وبذلك لم يعد الخبازون يصنعون تلك الفطائر ، وحرموا الارباح التي كانوا يجنونها ، وأصابتهم لعنة البطالة(٣٤) .

٢ ـ التمائم : لم يعد بمقدور صناع التمائم بيع تعاويذهم الالهية القديمة عند ابواب المعابد . أصاب هذا الكساد صناع الجعارين والتماثيل الصغيرة « أوشابتي »، فقد كان الكهنة يوصون الناس ، أنه عن طريق تعاويذ هذه الجعارين والاوشابتي يمكن ضمان براءة المتوفى . وبحلول الاتونية أقصيت هذه التعاليم ، وصار الصناع لا ينقشون فوق الجعارين التعاويذ السحرية لاخماد وحي « الضمير » عند المتهم ،

بل صاروا ينقشون فوقها أدعية بسيطة موجهة الى أتون طلبا للحياة المديدةوللعطف والطعام . وفي هذا الصدد ، علينا ان نذكر صانعي شواهد القبور المزخرفة بالنقوش الزاهية المستوحاة من كتاب الموتى ، فقد استبعدت شواهدهم لانها أخذت من تراث الديانة المصرية غير الاتونية(٣٥) .

٣ ــ لفائف البردي المكتوبة : والكتاب ايضا أصابتهم لعنة البطالة ، فقد كان هؤلاء يكتبون على لفائف من البردي النصوص الدينية الطويلة المنقولة من كتاب الموتى ، يصبون اللعنة من خلال كتاباتهم على كل من يسيء الى قبر المتوفىومحتوياته. وقد ابطلت الان هذه الكتابات ، لانها ضمت اسماء الالهة المصريين القدامى ، أو أنها كانت تضم كلمة الالهة بصيغة الجمع(٣٦) .

٤ ــ التمثيليات الدينية : كان كهنة مصر يمثلون أحداثا خاصة بالالهة قبل حلول عهد اخناتون . أما في عهد أخناتون فقد صاروا يطردون من الاماكن المقدسة في مواسم التمثيليات ، نذكر من هذه التمثيليات على سبيل المثال « تمثيلية مأساة أوزير »، وتمثيلية انتقال الاله امون من معبد الكرنك الى زوجته الالهة « موت » في معبد الاقصر(٣٧) . ونضيف الى ما سبق طوائف الحجاج الذين كانوا يحجون الى أبيدوس ــ حيث الاعتقاد يوجد قبر أوزير ــ ويمثلون هنا « حياة أوزير وموته وبعثه بعد الموت »(٣٨) .

٥ ــ نحت التماثيل : حرّم اخناتونتجسيد الاله أتون بشكلانساني أو حيواني، كما حرم عبادة الاله اوزير والالهة المصرية . لذلك أصيب نحاتو تماثيل الالهة بضربة موجعة ، وتكدست تماثيلهم في معاملهم دون ان يشتريها احد(٣٩) .

المظاهر الفكرية :

تتجلى الحرب الفكرية بين اخناتون والمعارضة في تعاليم دينه ، فالدراس لهذه التعاليم ، يستنتج ، أنها كانت تهدف الى تنزيه الدين الجديد عن كل نقيضه ،والسمو به ليكون رحمة لكل البشر ، والابتعاد عن السحر والشعوذة والدجل ، وبهذا كانت تعاليم الدين الجديد ، تسمو على ما كان قائماً ، وتتنزه عن كل كذب وسحر وشعوذة يمارسها كهنة أمون . وفي كل هذا حرب لا هوادة فيها على ديانة أمون ، وكسب مؤيدين جدد في داخل وخارج مصر . وفيما يلي يورد الباحث مزيدا من مبادىءهذه الديانة ، التي قطعت الطريق على سحر وشعوذة ودجل الكهنة .

أولا التوحيد ؛ سبق وأن قمنا ببحث هذا الموضوع مفصلا .

ثانيا الماعت(٤٠) ؛ مارس كهنة أمون كثيرا من السحر والشعوذة لضمان براءة المتوفى ، عن طريق وزن قلبه ، والاوشابتي ، والتعاويذ كما سعى الكهنة الى تجديد وتعميق الورع الديني عند الناس عن طريق تمثيل مأساة اوزير ، وانتقال الاله أمون الى معبد الاقصر ، وغير ذلك . كما كانت العقيدة الدينية المصرية تأمر المصريين ، بأن يكون تمثال الشخص خال من المرض والعيوب ، ويجسد صاحبه وهو في شرخ الشباب ، لتستطيع الروح التعرف اليه والعودة . لكن تعاليم الديانة الجديدةنسخت كل ما تقدم وأبطلته كما رأينا في التمثيليات والسحر ، وأنكرته في النقش والنحت أيضا ، وقد كان اخناتون مخلصا لهذا المبدأ ، ولو كان الامر يتعلق بالفرعون نفسه، حيث نرى الفرعون وقد رسم برأس غير متناسق ، ورقبة رفيعة ، وشفتين غليظتين، وبطن متدل ، وأفخاذ كبيرة غير متناسقة ، وذراعين رفيعتين أيضا .

ثالثا : الديانة العالمية : ارتفع شأن الاله أمون ، منذ أيام الاسرة الثانية عشرة ، حيث ارتبط اسمه مع اسم مؤسس هذه الاسرة الملك أمنمحات الاول (١٩٩١ق.م). وزادت قدسية الاله أمون ، عندما استطاعت طيبة أن تطرد الهكسوس وتكون امبراطورية مترامية الاطراف تمتد من الفرات الى حدود السودان الشمالية ، لأن أمون إله طيبة ، هو الذي حقق كل هذه الانتصارات والانجازات . وكما رأينا سابقا بقي أمون مقدسا الى أيام الملك أمنحوتب الرابع (١٣٦٧ ق.م) . وبذلك يكون قد مر على عبادة أمون قرون طويلة ، تغيرت خلالها ظروف مصر كثيرا . فمنذ تكوين الامبراطورية المصرية (١٤٦٧ ق.م) ، انفتحت مصر على بلاد الشام بخاصة وعلى البلاد المجاورة لها بعامة ، فأخذت من حضارات هذه البلاد وأعطت ، سواء في مجال اللغة أم الديانة أم التجارة أم الصناعة أم الفن . ووفدت الى مصر جماعات الاسرى بأعداد كبيرة جدا ، جعلت بعضهم يقول أن خلقة المصريين تحسنت نتيجة لذلك(٤١) .

وهكذا نستنتج مما سبق أن أجيالا نشأت في مصر ، قد اطلعت على ثقافات الامم الاخرى ، فأصبحت لها ثقافتها الخاصة ، وأصبحت لها نظريتها الخاصة في معالجة شؤون الحياة . وكان الى جانب هذه الطبقة المستنيرة ، الطبقات الشعبية وعامة الناس وكهنة أمون . هذه الطبقات المحافظة، التي ترى دوما أن صلاح الامة وازدهارها يتحقق عن طريق التمسك بالتقاليد القديمة ، والتمسك بحرفية تعاليم الديانات التي أوصلت مصر الى بناءامبراطورية عظيمة . وقد ساعد واقع مصر هذا الملك أخناتون، الذي كان على رأس الفئة المستنيرة ، والتي كانتعلى درجة من التثقيفوالتعليم(٤٢)، على ابداع ديانة جديدة لا تسود مصر وحدها ، ولكن تسود كافة أرجاء الامبراطورية المصرية . وربما كان هدفه سياسيا ، وهو السيطرة على أرواح شعوب الامبراطورية ، وربطهم ثقافيا وروحيا بمصر ، وبذلك يسهل على مصر ادارة امبراطوريتها المرتبطة

روحيا بمصر ، وبمبدعها الروحي أخناتون(٤٣) . وشاهدنا فيما نقول أناشيد أخناتون التي تتضمن توجها عالميا ، ما وجد في أي عصر من عصور تاريخ مصر .

« ان آتون » خلقهم (لنفسه هو) .
فجميع الاراضي وأهل بحر ايجة يحملون
ضرائبهم وجزيتهم فوق ظهورهم الى الذي
أوجد حياتهم والذي بأشعته تحيا البشر
وتستنشق الهواء(٤٤) .

استطيع أن أضيف الى ما سبق ، ان اناشيد اخناتون لربه يستطيع أن يتغنى بها السوري والنوبي. الخ. حيث ذكرت في هذه الاناشيد الشعوب التي كانت تحت السيطرة المصرية ، كما وان نظرة الكبرياءوالتعالي ، التي كان ينظر بها المصريون نحو تلك الشعوب أصبحت كأنها لم تكن(٤٥) . فالناس كلهم أبناء الله ، هو الذي خلق الوانهم ولغاتهم ، ووضعهم في أقاليمهم المختلفة ، والله رحيم بهم جميعا يعطيهم حسب ظروفهم الاقليمية ، فهو يخلق لمصر نيلاً في الارض ، ولكنه يخلق لاهل الشام نيلا في السماء :

ما أكثر تعدد أعمالك
انها على الناس خافية
يا أيها الاله الأحد
الذي لا يوجد بجانبه اله آخر
لقد خلقت الارض حسب رغبتك
وحينما كنت وحيداً (لا شيء غيرك)
خلقت الناس وجميع الماشية والغزلان
وجميع ما على الارض
مما يمشي على رجليه
وما في عليين مما يطير بأجنحته
وفي الاقطار العالمية سورية
وكوش وأرض مصر
فانك تضع كل انسان في موضعه

وتمدهم بحاجاتهم
وكل انسان لديه قوتــه
وأيامه معدودات
والألسنة في الكلام مختلفة
وكذلك تختلف أشكالهم وجلودهم
لأنك تخلق الاجانب مختلفين .
أنت تخلق النيل في العالم السفلي
وأنت تأتي به كما تشاء
ليحفظ أهل مصر أحياء
لانك خلقتهم لنفسك
وأنت سيدهم جميعاً
وأنت الذي تنهك نفسك من أجلهم
وأنت رب كل قطر
وأنت الذي تشرق من أجلهم
وأنت شمس النهار عظيم الافتخار
وجميع الاقطار العالمية القاصية
أنت تخلق حياتها أيضا
لقد وضعت نيــلا في السماء
وحينما ينزل لهم يصنع أمواجا فوق الجبال
مثل (أمواج) البحر
فيروي حقولهم في قراهم .
ما أكرم مقاصدك يا رب الابدية
ويوجد نيل في الســماء للاجانب
ولأجل غزلان كل الهضاب التي تتجول على أقدامها
أما النيل فانه يأتي من العالم السفلي لمصر(٤٦) .

وهكذا كما رأينا ، فان حماية ورحمة ورعاية الاله المصري ، لم تعد مقتصرة على مصر فقط ، بل امتدت لتشمل سورية ومصر وكوش والنوبة والصحراء والعالم كله . ولم تعد مهمة الاله قهر الشعوب غير المصرية لصالح الفرعون المصري ، وربط تلك الشعوب الى مركبة الفرعون لتجرها وراءها بشكل مهين ، بل صار الاله ينزل لها نيلا من السماء ليروي حقولها في قراها ، ويجعلها تعيش في سعادة ورخاء . باختصار ان الاله أتون أصبح إلهاً للجميع لا يفضل شعبا على شعب . ولا يختار شعبا ويخصه برحمته ورضاه ، وفي هذا سبق حضاري وانساني يرجع الى حوالي ١٣٦٧ ق.م أي قبل حوالي ثلاثة آلاف وثلاثمائة وواحد وستين عاما . وهنا يكمن سر عظمة أخناتون .

موقف المعارضة من عالمية أخناتون :

من المؤكد أن المعارضة ، وقفت ضد هذا الاتجاه (عالمية دين أخناتون) . طالما أن التعاليم السامية لهذا الدين ، سوف تؤدي الى نجاحه وانتشاره في مصر وكافة أقطار الامبراطورية المصرية . وهذا يعني القضاء على ديانة أمون الى الابد .

أيام أخناتون الاخيرة :

واجهت دعوة أخناتون صعوبات جمة في انتشارها ، حيث كان كهنة أمون (المعارضة) وراء هذه الصعوبات . وما أن وافت السنة الثانية عشرة من حكم أخناتون حتى ساءت أحوال مصر الداخلية والخارجية ، لارتباط الواحد منهما بالآخر ارتباطا وثيقا . ففي الداخل تفرقت الامة الى شيع وأحزاب متناحرة ، وقد كرس أخناتون كل اهتمامه لهذا الصراع ، ولم يول الامبراطورية في سورية أي اهتمام ، مما شجع الحثيين والعموريين على اقتسام النفوذ المصري في سورية ، حيث نتج عن هذا الاقتسام انقطاع جزى الممالك الشامية عن مصر ، وانقطاع تجارة مصر مع بلاد الشام، وهكذا أصبحت مصر تعاني من الضعف السياسي والاقتصادي .

أحست الملكة « تي » أم أخناتون بوضع ابنها ووضع البلاد الذي لا يسر صديق، وأدركت المصير السيء الذي ينتظر ابنها والبلاد المصرية ، فزارته في عاصمته في عام حكمه الثاني عشر . وبسطت أمامه أمور البلاد الداخلية والخارجية ، وطلبت منه أن يهادن كهنة أمون .

فتحت هذه الزيارة عيني الملك على حقيقة حال البلاد المصرية والامبراطورية المصرية . وتدل تصرفات أخناتون بعد هذه الزيارة ، أنه اقتنع بآراء أمه ، فسعى الى التخفيف من غلواء دعوته تجاه كهنة أمون . بل والى الصلح معهم . ولذلك أرسل

شريكه في الحكم سمنخ كارع زوج ابنته الكبرى الى طيبة ليجس نبض كهنة أمون ، وليجد أفكارا تصلح لأن تكون أساسا للصلح. لكن قرائن الاحوال تدل على أن المعارضة، أدركت ان وضع اخناتون أصبح ضعيفا في الداخل والخارج . ولذلك لم يقبل كهنة أمون بأقل من اجتثاث جذور الثورة الاتونية . وقد ساعدهم القدر على هذا ، وكان لهم ما أرادوا . فاخناتون ملهم هذه الثورة وسمنخ كارع شريكه في الحكم توفيا .وصعد الى سدة الحكم في « آخت أتن » « توت عنخ أتن » زوج ابنة اخناتون الثانية (غنخى ــ ان ــ با ــ أتن) . وقد قبلت المعارضة بهذا الطفل ملكا على مصر ، لانه سيكون العوبة بأيدي كهنة أمون . فلا الخبرة متوفرة ، ولا الارادة حرة ، ولا القوة لديه موجودة . والادلة على هذا كثيرة ، نشير الى بعضها على سبيل المثال ، لقد أجبر الملك بعد فتر وجيزة على هجر العمارنة والعودة الى طيبة ، يضاف الى هذا أن الملك غيّر اسمه من توت عنخ اتن الى توت عنخ أمون ، وفي هذا اعلان رسمي عن عودة الديانة الامونية لتكون ديانة الملك الرسمية . وبهذا تكون ثورة العمارنة قد وصلت الى النهاية . وأستطاعت المعارضة (الكهنة) أن تقضي عليها القضاء المبرم . وتعود ديانة أمون الى مكانتها المميزة ، ونفوذها في المجتمع المصري القديم(٤٧) .

وهكذا فشل حكم اخناتون ، وفشلت معه ديانته الاتونية . ومن دراستنا السابقة يتضح لنا بجلاء أن أسباب هذا الفشل يعود الى ثلاثة محاور رئيسة .المحور الاول يتضمن مقاومة كهنة امون وانصارهم من كهنة الآلهة الاخرى . والمحور الثاني يتضمن النتائج التي نتجت عن اجراءات اخناتون ، حيث أصبح الجيش غير راض عن سياسة اخناتون السلمية . وزاد عدد العاطلين نتيجة لاغلاق المعابد . وانقطعت التجارة المصرية مع غيرها من البلدان المجاورة ، كما انقطعت عن مصر جزى الشعوب التي كانت خاضعة لمصر ، مما زاد في ضعف مصر الاقتصادي . أما المحور الثالث فيتضمن تعليم الديانة الاتونية نفسها . فقد كانت تعاليم محصورة بشخص الملك ، الذي يتلقى التعاليم من الاله أتن ، وعنه يأخذ البشر ، وبذلك لم تصل هذه الديانة الى قلوب المصريين ، ولم يعايشوها . فقد جاء في النشيد لأتن ما يلي:

ليس هناك واحد آخر يعرفك إلاّ ابنك اخناتون

لقد جعلته عليماً بمقاصدك وبقوتك .

يضاف الى ما سبق أن الديانة الأتونية كانت ديانة غير شعبية ــ كما بينا سابقا ــ فمبدع هذه الديانة كان ملكا ينتمي الى أعلى الطبقات المثقفة المتعلمة ، ولم يكن من الفقراء الضعاف الاقرب الى الطبقات الشعبية العريضة . كما ان الديانة كانت ديانة أكثر تجريدا مما سبقها من الديانة المصرية ، التي عاشت في ضمير ووجدان المصري

لمئات عديدة من السنين ، والذي تعوّد على عبادة الهة متجسدة بشكل حيواني أو انساني . وشدته عاطفته الدينية الى موروثه الايماني ، ومنعته من ان يرقى بفكره الى ادراك الأفكار الوجدانية المجردة . ولذلك كان من الصعب على المصري ، أن يترك العادات والتقاليد والايمان الموروث بمدة وجيزة لا تتجاوز مدة حكم اخناتون (١٧ سنة) ، بل ربما أحس المصري القديم بشيء من تأنيب الضمير ، عندما كان يرى معابده المقدسة وقد أصابها الخراب والاهمال والعبث وأوصدت أبوابها . وربما كان ينظر الى اماكن الاحتفالات الدينية فيجدها صامتة لا حركة فيها ــ كما مر معنا سابقا ــ فتملأ الحسرة قلبه . ومن المؤكد أن الآلهة كانت أثيرة لدى الشعب المصري وخاصة الاله أوزير ، الذي كان مسؤولا عن سعادة المتوفى في الحياة الاخرة ، حيث كان المحامي عن الاموات أمام كل خطر ، أصبح منفيا من مصر ، ولا يستطيع انسان أن يذكر اسمه في عهد الملك اخناتون ، نتيجة لكل ما ذكرنا ، ابتعد الانسان المصري عن اخناتون وعن ديانته ، وأدى هذا الابتعاد الى فشل الديانة الاتونية .

المعارضة في السلطة :

عادت المعارضةالى سابق عهدها بعد فشل ثورة العمارنة . واحتلت مكانتها المميزة في المجتمع المصري القديم ، وتمتعت بكل الامتيازات السابقة(٤٩) . وقد واجهت المعارضة مشكلتين رئيستين ، الاولى اعادة ترتيب البيت المصري من الداخل ، والقضاء على كل ما خلفته ثورة العمارنة من آثار . والثانية اعادة الامبراطورية المصرية الضائعة في بلاد الشام ولو جزئيا .

أما فيما يتعلق بالمشكلة الاولى (ترتيب البيت المصري من الداخل) ، فقد بذلت المعارضة جهودا جبارة للتشهير بأختاتون ، فنسبت اليه كل مظاهر الضعف والخراب التي سادت مصر . فقد جاء في نص يعود الى عهد الملك توت عنج أمون ما يلي :

« انه الحاكم الطيب(٤٩)

الذي قام بأعمال عظيمة لوالد كل الآلهة(٥٠)

والذي أصلح كل ما كان مخربا حتى صار آثارا خالدة

ومحيت من أجله الخطيئة في الارضين (مصر) وبذلك دامت العدالة وجعل الظلم شيئا تمقتهالبلاد كما كان الحال في البداية(٥١) .

لم تكتف المعارضة بالتشهير بأخناتون ، ووصمه بالكذب والدنس ، بل سعت

جاهزة لان تحرمه الراحة الابدية ، وذلك عن طريق عدم ذكر اسمه ضمن اسماءملوك مصر الغابرين (القوائم الملكية) ، التي كانت تسجل على الاثار ، كحجرة الاجداد في معبد الكرنك من عهد تحوتمس الثالث وغيرها . وعندما كانت الاشارة الى اسمه ضرورية في الوثائق الرسمية في عهد الفراعنة الذين اتوا بعده كان يسمى « مجرم أختياتون ». ولابراز مدى حقد الكهنة على اخناتون نورد القصيدة التالية :

انك تصل الى من يبغي عليك
والويل لمن يهاجمك
مدينتك تبقى
ولكن من يهاجمك يهوي
وشمس من لا يعرفك تغيب .. يا أمون !
وأما من يعرفك فانه يضيء
ومعبد من هاجمك في ظلمه
بينما جميع الارض في نور(٥٢)

وأخيرا حاولت المعارض ان تنحي باللائحة على اخناتون في سقوط الامبراطورية المصرية في بلاد الشام « واذا أرسل قوم الى سورية لمد حدود مصر لم يكن الفوز حليفهم قط »(٥٣) . ولكن مهما ربطت المعارض بين أخناتون وضياع الامبراطورية المصرية في بلاد الشام فان هذه الادعاءات تبقى للدعاية ضد اخناتون . قام بها اعداء اخناتون أنفسهم ، فقد قامت امبراطوريات في التاريخ مثل الامبراطورية الاكدية ، والبابلية ، والميتانية ، والحثية ، والكاشية ، والاشورية ، والكلدانية ، والفارسية والرومانية ، الاسلامية ، والبريطانية ، وسقطت كلها دون أن يظهر فيها أخناتون واحد. انها سنة الحياة ، طفولة وشباب وكهولة وسقوط .

أما فيما يتعلق بمحاولة اعادة الامبراطورية الضائعة في بلاد الشام(٥٤) ، فقد أدركت المعارضة ، عنف الهزة التي أصابت مصر ، جراء ثورة اخناتون الدينية ، كما أدركت مدى التغيير الدولي الكبير ، فقد بلغت الدولة الحثية ذروة مجدها ، وأقصى توسع لها في بلاد الشام . ولذلك آثر قائد الجيش حورم حب ، الرجل الذي كانت له السلطة الفعلية في مصر ، الاهتمام بشؤون مصر الداخلية قبل السعي لاعادة الامبراطورية ، فسن التشريع ، الذي نظم الادارة والقضاء وشؤون الجيش (٥٥).

وهكذا فقد ملأ اخناتون الدنيا وشغل الناس ، لا في القديم فحسب ، بل فيعالمنا

الحديث أيضا ، فقد كان اخناتون فيلسوفا ملتمسا ومفكرا مبدعا ، هدته ثقافته وفلسفته الى ابداع فكر عظيم . لقد كان فكر اخناتون ظاهرة مبكرة جدا في تاريخ الفكر الانساني ، أساسه الوجدانية ، والسلام بين الشعوب ، والصدق في سلوك البشر ، وحب الطبيعة ، وحب الانسان ، لقد كانت النزعة الانسانية في فكر اخناتون مميزة وواضحة ، فرحمة الله ـ حسب دينه ـ لا تخص شعبا بعينه ،أو أن الله يختار قوما ليخصهم بامتيازات على سائر البشر ، جاء كل هذا منذ ثلاثة الاف وثلاثمائة سنة . لكل ما سبق سيبقى أخناتون وفكره في ذاكرة البشرية ، ما دامت الحياة ، تكبره وتعجب به الاجيال .

المراجع :

١ ـ أحمد فخري ، مصر الفرعونية ، القاهرة ، ١٩٧١ .

٢ ـ ارمان ، ديانة مصر القديمة ، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ، القاهرة .

٣ ـ برستد ، فجر الضمير ، ترجمة سليم حسن ، القاهرة ١٩٥٩ .

٤ ـ جاردنر ، مصر الفراعنة ، ترجمة نجيب ميخائيل ابراهيم ، القاهرة ١٩٧٣ .

٥ ـ عبد المنعم عبد الحليم سيد ، حضارة مصر الفرعونية ، الجزء الاول ، ١٩٧٨ .

٦ ـ محمد أنور شكري ، العمارة في مصر القديمة ، القاهرة .

٧ ـ محمود عبد الحميد أحمد ، سلسلة العلاقات السورية المصرية عبر التاريخ ، الجزء الاول ، دمشق ١٩٨٥ .

٨ ـ ويلسون ، الحضارة المصرية ، ترجمة أحمد فخري ، القاهرة ١٩٥٥ .

٩ ـ الموسوعة المصرية ، نخبة من الاساتذة .

١٠ — Baeasted, H., Ancient Records of Egypt , Chicago 1906 .

١١ — Gardiner, A., Egyptian Grammar, London 1959.

١٢ — Geotze, A., Shoppiliumash Destroys the Kingdom of Mitanni , A. N. E. T.

١٣ — Wihson, J., Yut - ankh - amon- Restoration after the amarna Revolu tion, A. N. E. T.

الحواشـــي :

(١) Breasted, J, H.,Ancient Records of Egypt- Chicago, 1906 .

(٢) حارب احمس الاول في فلسطين ، كما حارب تحوتمس الاول في بلادالشام ووصل الـى الفرات (منطقة نهارين) . كما حارب الملك تحوتمس الثالث في بلاد الشام حيث شـن عليها سبع عشرة حملة عسكرية ، وقد كانت جيوشهم برية. — محمود عبد الحميد أحمد، سلسلةالعلاقات السوية المصرية عبر التاريخ، الجزء الاول ، دمشق ١٩٨٥ ، ص ٤١–٨٦ .

(٣) حصل هذا في أواخر أيام الملك امنحوتب III

(٤) للاطلاع على أحوال مصر القديمة قبل أخناتون انظر : محمود عبد الححميد أحمد ، سلسلة العلاقات السورية المصرية عبر التايخ ، الجزء الاول ، دمشـق ١٩٨٥ ، وسيشار اليه فيما بعد هكذا ، محمود عبـد الحميد أحمـد ، سلسلة العلاقات .

(٥) تحوتمس الثالث (١٤٦٨ — ١٤٤٧) ق.م. من أعظم فراعنة الاسرة الثامنة عشرة ، حيث يعد مؤسس الامبراطورية المصـرية في بـلاد الشـام . انظر :

محمود عبد الحميد أحمد ،سلسلة العلاقات، (مرجع سابق) ، ص ٦٩–١٠١ .

(٦) يرى بعض الباحثين أن اخناتون لم يبـدأ العداوة ضد كهنة أمون ، بدليل انه أعلـن اثر اعتلائه العرش ، أن الهه أتن ما هو الا « رع حور أختي » (اله الشمس) الذي يتجلى في الافـق باعتبـاره النور الـذي في الكوكب أتن . وبهذا قـدم اخناتون الالـه أتن على أنه اله شمسي ربط الى اله شمسي آخر عظيم ، وهذا شائع في الديانة المصريـة مثل (أمون — رع) . لكن الكهنة وقد أحسوا بتوجيه ملـوك هـذه الاسـرة الى العبـادة الشمسية ، بمحاولتهم تمجيد اتـن رأوا في توجـه أخناتون نحـو الاله أتن خطرا يهـدد مصالحهم الاقتصادية ، ويقضي على نفوذهم.
— عبد المنعم عبد الحليم سيد ، حضارة مصر الفرعونية ، جـ ١ ، الاسكندرية ١٩٧٨ ، ص ١٩٢ .

(٧) برستد ، فجر الضمير ، ترجمة سليم حسن، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٢٩٩ .

(٨) عمد موظفو الملك الى الارشيف الملكي ، فمحوا اسم أمون . وكذلك عمدوا الى محو أسماء سائر الالهة الاخرى .
— محمود عبد المجيد ، سلسلة العلاقات ، ص ١٧٤ .
— برستد ، فجر الضمير ، مرجع سابق ، ص ٣٠٠ .

كان أمون اله الهواء ، وكان يعني اسـمه « الخفي » وهو في هذا عكس أتن الالـه الذي يتجلى للناس يوميا وبوضوح تام .

(٩) ويلسون ، الحضارة المصرية ، ترجمة أحمد فخري ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ١٦٢ .

— Gardiner , A., Egyptian Grammar, London, 1959, p. 625.

(١٠) الموسوعة المصرية ، نخبـة من الباحثين ، الصورة ٣١٨ .

(١١) سمى امنحوتب الثالث الزورق الذي كـان يستخدمه في النزهة مع الملكة في بحيرة قصره بطيبة « اتون يشـع » . وبناء على كل ما سبق يرى بعض الباحثين أن نوعا من التعبد كـان يقام لأتن في طيبة فعلا ، انظـر :
— جادونر ، مصر الفراعنة ، ترجمـة نجيب ميخائيل ابراهيم ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص٢٤٣ — ٢٤٤ .

ـ أحمد فخري ، مصر الفرعونية ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ٢٠٧ .

(١٢) ارمان ، ديانة مصر القديمة ، ترجمة عبد المنعم ابو بكر ، القاهرة ، ص ٢٠٨ ـ٢١٦ ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

(١٣) كان قضاة مصر على الاغلب من الكهان ، وكانت الدعاوى تحفظ وتعد مع مكان حفظها من المقدسات .

(١٤) ان نقل العاصمة يدخل أيضا ضمن اجراءات الحرب الاقتصادية التي شنها اخناتون على كهنة أمون ـ كما سنرى ـ .

(١٥) محمود عبد الحميد أحمد ، سلسلة العلاقات (مرجع سابق) ، ص ٤٥ .

(١٦) أطلق جنود تحوتمس على نهر الفرات اسم « النهر ذي المياه المقدسة » وذلك قياسا على اتجاه مجرى النيل .

— B. A. R., vol, II

(١٧) فيما يتعلق بحروب ملوك مصر . انظر : محمود عبد الحميد أحمد، سلسلة العلاقات، ص ٤١ ـ ١١٥ .

(١٨) انظر المظاهر الدينية في هذا البحث .

(١٩) برستد ، فجر الضمير (مرجع سابق) ، ص٣٠٤ .

(٢٠) جاء في نص مصري يعود الى عهد « تون عنخ أمون » (الملك الذي حكم مصر بعد أخناتون وارتد عن الاتونية) ، وصف لحالة المعابد في عهد أخناتون كما يلي : « وأغلقت معابد الالهة من ـ الفنتين » (أي الشلال الاول) الى الدلتا ...

وهجرت أماكنهم المقدسة ، ونبت فوق دمنها المرعى . وصارت معابدهم كأن لم تغن بالامس وبيوتهم صارت طرقا معبدة ، والبلاد كانت في مأزق سيء . وأما الالهة فقد هجرت هذه الارض .

ـ برستد ، فجر الضمير (مرجع سابق) ، ص ٣٣٠ .

(٢١) من أجل حصول الكهنة على حصتهم من الاسلاب والغنائم ، كان يرافق الجيش المصري في غزواته كاتب ـ كان في أغلب الاحيان كاهن تسميه النصوص S'sms'c (كاتب الجيش) . وكانت مهمة هذا الكاتب تسجيل الاسلاب والغنائم ، ولذلك لاحظ الباحثون أن هذا الكاتب ، كان يهتم بتسجيل الاسلاب والغنائم أكثر مما يهتم بأحداث المعركة .

(٢٢) عندما شاهدت الملكة حتشبوت أرباح حملتها التجارية الى بونت ، تبرعت فورا بجزء منها الى الاله أمون . انظر :

— Breasted J., Ancient Records of Egypt. Vol II, Chicago, pp270 ff.

(٢٣) الغى اخناتون عبادة الاله أوزير ، وكان لهذا الالغاء أثر سلبي بعيد المدى في نفوس الطبقات الشعبية المصرية بخاصة . وذلك بسبب المكانة العظيمةالتي يحتلها هذا الاله في نفوس الناس كاله شعبي وكاله رمز لعقيدة المصريين في حياتهم الدنيا ، وفيبعثهم بعد الموت . وقد غزت عقيدة أوزير نفوس المصريين منذ أواخر الاسرة الخامسة ، حيث جعلت هذه العقيدة نصيبا للطبقات الشعبية بنعيم الخلد في دولة أوزير رب الابدية ، بل اعتقد المصريون في عصر الدولة الوسطى ، ان كل متوفٍ سيصبح أوزير في الحياة الاخرة ـ وهنا سوف يتمتعالجميع بنعيم الحياة لا فرق بين غني وفقير أو بين حاكم ومحكوم ، وكان أوزير على رأس اثنين وأربعين الهاً يحاكمون المتوفي في قاعة كبيرة .

ـ الموسوعة المصرية ، (مرجع سابق) ، ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ـ ٣٦١ ـ ٣٦٢ . عبدالمنعم عبد الحليم سيد ، حضارة مصر الفرعونية، (مرجع سابق) ، ص ١٣٧ ـ ١٤٦ ، ١٩٣.

(٢٤) برستد ،فجر الضمير ،مرجع سابق،ص٣٣٠.

(٢٥) ويلسون ، الحضارة المصرية (مرجع سابق)، ص ٣٧٢ .

(٢٦) ربما كانت هذه السياسة نابعة من ثقافة وطبع وفلسفة اخناتون الدينية ، فقد جاء في رسالة بعث بها الى عزيرو الزعيم العموري ما يلي : « أنت تعرف أنني أكره الحرب ولا أريد ان اذهب لاقتل الناس في آسيا ». أو ربما بسبب حربه مع المعارضة ، هذه الحرب التي فرقت الامة الى حزبين كبيرين (حزب الملك ، وحزب الكهنة) ، او ربما بسبب تضليل اخناتون من قبل حاشيته ، اذ يعتقد ان هذه لم تكن مخلصة لاخناتون، وبالتالي فلم تطلعه على حقيقة الوضع في سورية بشكل خاص .

- محمود عبد الحميد احمد ، سلسلة العلاقات . (مرجع سابق).

(٢٧) الحثيون من الشعوب الهندو - اوربية . هاجروا الى اسيا الصغرى في مطلع الالف الثاني قبل الميلاد وتغلبوا على الشعب الذي سبقهم اليها واحتلوا عاصمتها خاتي فيمنعطف نهر الهالس الذي يصب في البحر الاسود ونسبوا اليها.- محمود عبد الحميد ،سلسلة العلاقات، (مرجع سابق) ، ص١٣٠ - ١٣٣ .

(٢٨) الشعب الحوري - الميتاني ، شعب هندو- أوربي ، وصل الى منطقة الجزيرةالسورية في مطلع الالف الثانية قبل الميلاد ، حيث اسس دولته ، واتخذ من واشوكاني (تل الفخيرية بالقرب من راس العينالحالية) عاصمة له .

- محمود عبد الحميد احمد ، سلسلة العلاقات (مرجع سابق) ، ص١٢٣-١٢٧ .

(٢٩) يعد شوبيلوليوما Suppilumas من أعظم ملوك الامبراطورية الحثية الحديثة. وقد امتدت فترة حكمه من حوالي ١٣٩٠ق.م الى ١٣٥٤ ق.م .

— Pritchard, A.N.E.T., P. XVIII .

(٣٠) Goetze, A., Shoppiliumash Destroys The Kingdom of Mitanni, A. N. E. T, P. 318 .

(٣١) محمود عبد الحميد احمد ، سلسلة العلاقات (مرجع سابق) ، ص ١٦٢-١٦٣ .

(٣٢) تقع جبيل على الساحل السوري الى الشمال من بيروت الحالية ، وتعد من أهم الموانئ الفينيقية التي كان لها صلاتتجارية كبيرة مع مصر منذ عصور مبكرة جدا .
أما سميرا « Symura » فتقع على الساحل السوري أيضا الى الجنوب منمدينة طرطوس الحالية ، وربما تل الكزل الحالي.

(٣٣) محمود عبد الحميد احمد ،سلسلةالعلاقات، (مرجع سابق) ، ص ١٦٤ - ١٧٠ .
- استطاع عزيرو ان يسيطر على بيروت بعد جبيل وبذلك امتد حكمه على الساحل من سميرا الى بيروت .

(٣٤) تماثيل الاوشابتي ، تماثيل صغيرة ، توضع مع الميت في غرفة دفنه ، كانت تقوم باجابة الالهة بدلا من الميت عندما يتطلب الموقف، وتسميتها قريبة منالمصد ر العربي «اجابة» .
- برستد ،فجر الضمير ،(مرجع سابق)ص٣٣٠

(٣٥) برستد ، فجر الضمير ، ترجمة سليمحسن، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٣٢٨ .

- برستد ، فجر الضمير ، (مرجع سابق)، ص ٣٣٠ .

(٣٦) برستد ،فجر الضمير،(مرجع سابق)،ص٣٣٠

(٣٧) محمد أنور شكري ، العمارة في مصر القديمة ، القاهرة ، ص ٢٠٠ - ٢٠١.

(٣٨) احمد فخري واخرون ،الموسوعة المصرية ، المجلد الاول ، الجزء الاول ، القاهرة ص٧٧ - ٧٨ .

(٣٩) برستد ، فجر الضمير ، (مرجع سابق)، ص ٣٣٠ .

(٤٠) الماعت في اللغة المصرية القديمة تعني الصدق أو الحقيقة
— Gardiner , op. eil , P. 567 .

(٤١) محمود عبد الحميد احمد ، سلسلة العلاقات (مرجع سابق)، ص ١٩٧–٢١٣.

(٤٢) يرى بعض الباحثين ان اخناتون كان فيلسوفا ملهما ، وقد هدته ثقافته الى ابداع ديانته . وهكذا فان هذا الابداع لم يكن وحيا الهيا يتنزل على الفقراء الضعفاء كما في الديانات السماوية بل هو اجتهاد بشري، لا يبدعه الا من كان مثقفا ومتعلما .

(٤٣) يقول برستد أن أخناتون اسس في النوبة مدينة لاتون مشابهة لـ « آخت آتن » في موقع العمارنة بمصر ، ومن المحتمل جدا، انه اقام مدينة اخرى لذلك الاله في اسيا ، وبذلك صار لكل من الثلاثة الاجزاء المعظيمة التي تتألف منها الدولة وهي مصر وسورية والنوبة مقر لمذهب « أتون ».

— برستد ، فجر الضمير ، (مرجع سابق) ص٣٠٠

(٤٤) برستد ، فجر الضمير (مرجع سابق)، ص ٣١٢ .

أي الناس ، البشر .

(٤٥) اطلق المصريون على انفسهم تسمية « rmt »
— Gardiner, A. . Op. cit, P.578.

(٤٦) برستد ، فجر الضمير (مرجع سابق) ، ص ٣٠٥ – ٣٠٦ .

— احمد فخري ، مصر الفرعونية (مرجع سابق) ، ص ٣١٣ .

(٤٧) محمود عبد الحميد احمد ، سلسلة العلاقات (مرجع سابق) ص ١٧٦ .

— من فحص مومياء الملك توت عنخ أمون تبين انه في التاسعة من عمره حين تسلم عرش مصر القديم .

— محمود عبد الحميد احمد (المرجع السابق) ص ١٧٦ .

(٤٨) تكونت المعارضة ضد اخناتون من كهنة أمون والجيش ، والعاطلين عن العمل ، وكانت السلطة محور الصراع . وعلى الرغم من عنف معارضة كهنة امون لثورة العمارنة ، فقد استطاعت المعارضة العسكرية الوصول الى الحكم قبل الكهنة ، – كما رأينا – اذ كان قائد الجيش حورم حب حاكم مصر الفعلي بعد اخناتون ، الى أن اصبح ملك مصر رسميا . لكن المعارضة الكهنوتية لم تفقد الامل واستمرت تسعى الى الحكم سعيا حثيثا ، الى أن وصلت الى عرش مصر حوالي ١٠٨٧ ق.م ، حيث تولى الكاهن حريحور الحكم ، وبذلك عد مؤسساً للاسرة الحادية والعشرين .

(٤٩) « تحوت عنز أمون ».

(٥٠) الاله أمون .

(٥١) برستد ، فجر الضمير ، (مرجع سابق) ص٣٣١. ص ٣٣١ .

(٥٢) القصيدة تخاطب أمون وتتشفى من اخناتون والله ومعبده ، (برستد المرجع السابق ص ٣٣١) .

(٥٣) برستد ، فجر الضمير (مرجع سابق)، ص ٣٣٠ . (النص من عهد الملك توت عنخ

(٥٤) تعد بلاد الشام مقدمة لمصر ، كما تعد مصر عمقا لبلاد الشام ، وكل حدث عظيم يقع في احدهما ، فان آثاره تنعكس على البلد الاخر. وقد أدرك المصريون هذه الحقيقة ، لذلك وجدنا المعارضة في أول ايام توت عنخ امون خليفة اخناتون ، تسعى الى انقاذ ما يمكن انقاذه من بلاد الشام ، فبعثت حورم حب قائد الجيش الى فلسطين الحالية وقد حقق بعض النجاح هناك .

(٥٥) احمد فخري ، مصر الفرعونية ، (مرجع سابق) ، ص ٢٣٦ – ٢٣٨ .